المؤرخ والجوائح : بين العبرة وإعادة الاعتبار

سعيد البوزيدي

جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة

said.elbouzidi@uit.ac.ma

ملخص

يؤكد التاريخ أن الأوبئة أمر مُعتاد، تتكرر وتتجدد وتزداد انتشارا، ليس فقط، داخل الدولة الواحدة وإنما أيضا عبر القارات. تعددت الدراسات والاهتمامات التاريخية التي عالجت موضوع الجوائح والأوبئة واستعرضت أنواع الأمراض ونتائج تفشيها وآثارها على كل المستويات. وهي بالتالي تُشكل مرجعية علمية تقتضي توظيفها أثناء تجدُّد ظهور الأمراض المُعدية. من هنا، يضطلع المؤرخ بدور المؤتمن والوصي على هذه "الذخيرة العلمية" للمساهمة، بدوره، في مُكافحة الوباء المُتجدد. ولذلك، يتحمل "مسؤولية تاريخية"، تجعل منه أحد الفاعلين الأساسيين لتدبير الجائحة المُتجددة التي تضرب العباد وتخرب البلاد وقد تُغير من مجرى التاريخ.

الكلمات المفاتيح: الجائحة، الأوبئة، المؤرخ، المسؤولية، التوعية، الحلول، التنبيه، الانضباط.

Résumé

L'histoire nous apprend que les épidémies étaient courantes et habituelles. Leur caractère répétitif a ravagé les pays et les continents, tout au long de l'histoire de l'humanité. La multiplicité des études sur les pandémies et les maladies, ainsi que les résultats qui en découlent, constituent une base de références scientifiques qui pourrait être exploitée en matière de planification des stratégies de lutte contre les épidémies. A ce titre, l'historien, de par sa connaissance du passé, peut contribuer, en tant qu'acteur, dans cette lutte pour vaincre, aujourd'hui, ce mal qui a décimé, dans les siècles passés des populations entières et changé le cours de l'histoire.

Mots-clés : *Pandémies, épidémies, historien, responsabilité, sensibilisation, alerte, discipline*

مع دخول المغرب فترة الحجر الصحي ابتداءً من 20 مارس 2020، أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي والإعلام السمعي البصري مصدر تتبع لأخبار تطور الوضع الصحي الناجم عن انتشار وباء كورونا - كوفيد-19. كما أنها تحولت إلى منصات إعلامية للتعبير عن اهتمامات "مُريدي" الشبكة العنكبوتية، وتبادل الأخبار حول "الحدث"، ونقل المُستجدات الآنية ذات الصلة بتطور الوضعية، والتعليق عليها.

في ظل هذه التفاعلات التواصلية، يضطلع المؤرخ بدور أساسي، من زاوية الطلب على معارفه، فيما يتعلق باستيعاب الحالة الوبائية التي تعيشها البلاد. ومعنى ذلك، أنه يتحمل "مسؤولية تاريخية" لأنه مُؤتمَن على التجارب التي عرفتها الإنسانية عبر التاريخ، وعلى بيّنة بتكرر وتجدد الجائحة[1]، كونها "ليست حالة مرضية (فردية)، وإنما هي حالة مُعدية (جماعية)". فكتب التاريخ، تحمل في طياتها العديد من الأخبار والتجارب التي تُساعد على الفهم، وتمكِّن من المساهمة في إيجاد الحلول المناسبة.

1. توالي ظهور الأوبئة وتجددها عبر التاريخ

لا تخلو فترة تاريخية، من القديم إلى المعاصر مرورا بالفترتين الوسيطة والحديثة، من ظهور أمراض وأوبئة ومجاعات وكوارث طبيعية. ويكفي أن نشير إلى أن المصادر التاريخية اليونانية والرومانية حبلى بمعلومات عن الأمراض والأوبئة التي عرفها العالم المتوسطي خلال الفترة القديمة (Thucydide، 1990). وهي تُميز بين المَحلية والوافِدة والقاتِلة والمُدمرة والفتّاكة، كما أنها تقدم مجموعة من التدابير التي أقدمت عليها الدول، مثل الحجر الصحي الذي عرفته قرطاج بعدما أصابها الطاعون في نهاية القرن 5 ق. م (Benoît Rossignol، 2002).

وجاءت المصادر التاريخية الوسيطية بكثيرٍ من الإشارات، وذكرٍ للأزمات التي عرفها العالم المتوسطي، وخاصة أوروبا التي كانت تمر من "عصر الظلمات"، وما واكبه من أمراض ومجاعات وأوبئة جعلت الكنائس تتحول إلى مُخلِّصَة للبشرية عبر "صكوك الغفران" (Coppin Brigitte et Welpy Michaël, 2006). ويبقى أشهر وباء شهده تاريخ أوروبا هو الطاعون الأسود (1348 – 1350) الذي قُدِّرَ عدد ضحاياه بثلث سكان العالم.

يظل تاريخ أوروبا غني بالمادة التاريخية التي تناولت موضوع "الجوائح والأوبئة" لِما أحدثتْهُ من تغييرات على مستوى مسارها التاريخي. يقول محمد حبيدة في هذا الصدد : "*ما يظهر من تجربة الأوبئة هذه، أنها دشّنت منذ كارثة الطاعون الأسود، خاصة في أوروبا، لمسلسلٍ من التحول الاجتماعي والفكري، وذلك بتفكُّك النظام الإقطاعي، والشك الذي صار يخيم على إيمان الناس بتعاليم الكنيسة، لأنها ظلت متمسِّكة بغيْبٍ لم يُجْدِ نفعا. فقد مكّن الوباء شيئا فشيئا من تعويض سلطة الرهبان بسلطة قوات حفظ الأمن التي استندت إليها الدول القومية الصاعدة، والتي كانت ضرورية لفرض الحجر الصحي كوسيلة فعالة للحد من انتشار العدوى عبر الاختلاط والاكتظاظ*" (محمد حبيدة، 2020).

---

[1] الجائحة : من جاح يجيح أي مُهلكة، والجمع هو الجوائح ويعني الهلاك، والعلم الذي يهتم به يطلق عليه "علم الجوائح".

وتزايدت المعلومات التاريخية عن تاريخ الأوبئة مع الكشوفات الجغرافية والتوسعات الاستعمارية الأوروبية التي شكلت رجّة عنيفة في تاريخ الإنسانية في حوض البحر الأبيض المتوسط وباقي بقاع العالم. وحيث إن شعاع التواصل وحِدَّة التفاعل أصبح قاريا، فإن انتشار ونقل الأمراض والأوبئة تزايد وتسارع. وهذا ما وقع في عامي 1831 و1832، حيث انطلق وباء الكوليرا من الهند وانتشر باتجاه اليابان والصين شرقا وأوروبا وبلدان الحوض المتوسط غربا. كما أن شعوب القارة الأمريكية عانت، هي الأخرى، من الأمراض الفتاكة التي صاحبت وصول الأوروبيين إلى أمريكا الجنوبية، وحتى أمريكا الشمالية، حيث فقد الهنود الحمر أعدادا هائلة من الأرواح فاقت ما فقدوه في حروبهم ضد هؤلاء (Benkimoun Paul, 2008).

لقد ارتبطت الأمراض والأوبئة بالتوسعات الاستعمارية الأوروبية، إذ اتخذت منها مطية لِـ "ضرورة توليها" مُساعدة الشعوب التي تعاني من أزمات صحية. في هذا الصدد يقدم كتاب بوجمعة رويان تشخيصا لتوظيف الطب الكولونيالي في المغرب ما بين 1912 و1956. فقد جعلت الدول الأوروبية من الأوبئة والمجاعات "صوراً إشهارية" عن الأعمال التي قامت بها لفائدة الساكنة المحلية التي كانت تعاني من مختلف الأمراض (رويان بوجمعة، 2013).

ويكشف تاريخ الأوبئة، خصوصا في حوض البحر الأبيض المتوسط، أن هذه الأخيرة كانت ظواهر طبيعية تعاقبت عبر الزمان والمكان، وأن الإنسان كابر للخروج منها بكل الوسائل والسبل، مستحضرا التجارب السابقة، وخصوصا تلك التي ساهمت في التخفيف من حدة الأمراض، وسمحت بالتعايش معها إلى أن يتم القضاء عليها. كما أن هذه التجارب تؤكد بأن مصدر القلق والخوف من هذه الظواهر لم يكن هو الموت، وإنما هي الفتنة التي كان يحدثها انتشار الأوبئة والجوائح في المجتمعات (الفرقان حسن، 2014).

توجد في أوروبا معاهد كثيرة مُتخصصة في دراسة تاريخ الأوبئة، تُنتج مجموعة من الدراسات التاريخية التي تشكل أرضية لتقديم استشارات واقتراحات من شأنها إيجاد حلول ممكنة، استنادا إلى نتائج البحث في التجارب التاريخية. من هنا، يلعب المؤرخ دور المرجع، إلى جانب التخصصات الأخرى، في اتخاذ القرار، وينتقل بالتالي من مُتتبع لتاريخ الأوبئة التي مرت منها البشرية عبر تاريخها إلى مشخِّص لها، مساهما بتراكم معرفته التاريخية في تدبير أزمة الجائحة.

2. الجوائح وتغيير مجرى التاريخ

تشهد المصادر التاريخية أن المغرب عرف توالي الأوبئة والأمراض، وأنها كانت من الأسباب الرئيسة لتعاقب الدول على حكم المغرب. وتقدم هذه المصادر صورا بشعة عن

انتشارها، حيث كان المرض يقتل قبل أن يضرب. فقد جاء مثلا في وصف مرض الطاعون أنه إذا أصاب الرجل جعله " يَقِيء من أعلى ويسهل من أسفَل". وهي "صورة إنذارية" عن حالة الموبوء. كما أن نتائجها لم تكن تهم الفرد فقط، والذي هو الضحية، وإنما المجتمع برمته، مدمراً البشرية (البزاز محمد الأمين، 1992).

تتفاوت شساعة انتشار الأمراض وقوة الأوبئة ونتائجها حسب الظروف التاريخية التي مر بها المغرب، ويبقى أن أمر تدبيرها شَكَّل، في غالب الأحيان، نقطة إجماع بين الحاكم والرعية، إذ كانت الجائحة تجعل كلا من المؤسسة الحاكمة والمجتمع في "مركب واحد". وتُشير نتائج الدراسات التي همت هذا الموضوع إلى أن فترات الازدهار كانت تعقُب تجاوز الأزمات الاجتماعية الداخلية المُرتبطة بانتشار المجاعة وتفشي مرض الطاعون على الخصوص (المكاوي أحمد، 2002).

ويُعتبر عمل الباحثيْن برنار روزنبرجي وحميد التريكي، حول "المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17"، من الأعمال التاريخية التي اضطلعت بدور "المُنبِّه"، إذ أكدت على أن وباء الطاعون كان الأكثر شيوعا في المغرب، منذ أن ذكرته المصادر في سنوات 1521-1523، ليتجدد ما بين 1557-1558، ومن 1596 إلى 1610، وفي أعوام 1626-1631، ثم طاعوني منتصف القرن 18 وجائحة "بوكليب" عام 1834، الذي توالى ظهوره خلال سنوات 1854-1855، و1859-1860، و1895-1896. هذا بالإضافة إلى "التيفوئيد" الذي تفشّى مع نهاية 1878 (روزنبرجي برنار و التريكي حميد، 2010).

كما أن الكتاب الجماعي الصادر تحت عنوان *"المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب"*، يعتبر من الدراسات التي تقدم تشريحا تاريخيا لأشكال المجاعات وتجدد الأمراض والأوبئة بالمغرب من القديم إلى الفترة المعاصرة، والتي شملت جوانب متعددة، تجاوزت الحقل التاريخي لتهم مواضيع مرتبطة بتغيُّر السلوكيات في المجتمعات وتبدُّل الطبائع البشرية. ويؤكد عمل الأستاذ عبد العزيز بلفايدة حول "بيبليوغرافيا المجاعات والأوبئة"، أن الحقل التاريخي قد راكم من الدراسات ما يستدعي منه المساهمة في تدبير الأزمة التي تمر منها البلاد والعباد *(المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب"*، 2002).

وخصَّصت أكاديمية الحسن الثاني للعلوم والتقنيات أشغال الدورة العامة الرسمية لسنة 2010 لموضوع الأوبئة في المغرب. وقد تناولت مداخلات الندوة أشكال الأمراض المُتجددة وتاريخها وكيفية التعامل معها، كما استعرضت مُستويات التدخلات العلاجية وفاعليتها، وأثارت الانتباه إلى أن آثارها وانعكاساتها متفاوتة جدا بين المجالين الحضري والقروي، وبين الفئات الاجتماعية للمجتمع المغربي. وركز التقرير النهائي للأشغال على كون الأوبئة المتجددة في المغرب

هي ذات طبيعة مسترسلة ومُفاجئة، وأن تضافر الجهود أمر مطلوب، لأن نتائجها غير معروفة، وقد تؤدي إلى تغييرات على مستوى السلوكيات الاجتماعية (L'Académie Hassan II des Sciences et Techniques, 2010).

وتقدم دراسات أخرى، همت هذا الموضوع، نتائج من شأنها المساهمة في فهم ما يجري اليوم، من حيث مجريات الأزمة وسبل تدبيرها، وتعدد التجارب حسب الحالات والأوضاع، وتفاوت حصيلتها. هذا ما تؤكد عليه دراسة انكبت على تاريخ الكوارث الطبيعية وأثرها على السلوكيات والعقليات، والتي تخلص إلى مسألة أساسية، هي اعتياد الإنسان المغربي على هذه الظواهر الوبائية (البياض عبد الهادي، 2008).

على مستوى العقليات، تنطلق قوة إيمان المغاربة بحتمية توالي الأوبئة والأمراض الفتاكة، من مرجعية دينية ترى بأن كل شيء قدر، وبأنه لا مرد لقدر الله في كونه. ولذلك، كانوا يؤمنون بالخير والشر، وبأن في كل بلاء دواء. وتتجذر المرجعية الدينية لهذه القناعة في الممارسة الدينية التي كان يجد فيها الإنسان ملاذه، ويستمد منها قوته من خلال الاعتكاف والاستغفار وطلب رفع الضرر على البلاد والعباد. ومعنى ذلك، أنه كان يستشعر هول الكارثة التي ألمت بالبلاد وتفشّت في المجتمع، ويعيش دوّامةً كانت تأتي على الأخضر واليابس، ولا تفرق بين الذكر والأنثى، ولا تميز بين الطفل والشيخ. وكما قال الشاعر: "من تُصبْ تُمِتهُ ومن تُخطِئ يُعمر فيُهرم".

ومن جهة أخرى، أبانت الدراسات التاريخية كيف أن تدبير المغاربة للجوائح كان بمثابة قياسٍ لقوة المخزن في توفير الأمن والحفاظ على السلم، إذ أن اتخاذ الاحترازات اللازمة وفرض التدابير الوقائية والإجراءات الصحية، أمور تطلبت قوةً يؤمن بفاعليتها الناس. وإذا كانت الدول الغربية قد آمنت بقوة القانون، فإن المغاربة كانوا يهابون تطبيق المخزن لهذا القانون. هذا ما تكشف عنه نتائج الدراسات التاريخية لتجارب الأوبئة والأمراض التي عرفها المغرب الحديث والمعاصر، حيث طوق المخزن الحواضر، وأمّن البوادي، ونظّم التفاعل بين الموجات البشرية، وفرض تطبيق إجراءات صحية وتدابير أمنية مكنت من اجتياز المراحل الصعبة (جسوس عز الدين، 2002).

ولعل من الهزات الارتدادية القوية لظهور مثل هذه الأزمات الوبائية، خلخلة مجموعة من المفاهيم والقيم والسلوكيات المجتمعية. وحيث إن انتشار الأمراض والأوبئة تجعل من الطبيب والممرض في الصفوف الأمامية من المواجهة، فإنها تثير الانتباه أيضا إلى دور المؤرخ الذي يملك خزانا من التجارب السابقة. فعلى غرار باقي القوى الفاعلة في المجتمع، يضطلع بدور "الحكَم" في عرض التجارب الاحترازية والوقائية والعلاجية (Sebti Abdelahad, 2010). ويكفي أن أشير

إلى الاعتبار الذي يحظى به مؤرخو الأوبئة والمجاعات في أوروبا سواء في الأوساط السياسية أو الإعلامية وحضورهم في كل الهياكل الرسمية التي تتولى تدبير أزمة كورونا - كوفيد-19 التي تجتاح العالم.

لقد سنحت مرحلة الحجر الصحي التي دخلها المغرب يوم 20 مارس 2020 فرصة تتبع البرامج الإخبارية والندوات التي تتناول موضوع كوفيد-19 المستجد. ومما أثار انتباهي، حضور باحثين من العلوم الإنسانية، إلى جانب الأطباء والمختصين في العلوم البيولوجية، في كل المنصات الإعلامية. وكان حضور "المؤرخ" وازنا، لأنه يضطلع بدور "ضابط إيقاع النقاش" بين الصحفي والطبيب والسياسي ومدراء المؤسسات الدراسية بخبرته التاريخية، مساهما بتدخلاته في طمأنة المواطن، كون أن الأوبئة والأمراض الفتاكة ظواهر طبيعية، ذات وتيرة متوالية وقوة متجددة، لكنها عابرة، وتتطلب الانضباط في تدبير أمر حدوثها. والملاحظ، أنه من تبعات اندماج المؤرخ في هذا النقاش تزايد الإقبال على الكتب ذات الصلة بالجوائح في تاريخ البشرية، من قبيل كتاب "الطاعون" لألبير كامو.

وتجدر الإشارة، في سياق هذه الفوائد التي يقدمها التاريخ، إلى أن تطبيق الحجر الصحي أو ما يُعرف بـ "الكرنتينة" هو نهج وقائي يعود إلى العصر القديم، بفضل الطبيب الإغريقي أبقراط الذي قال بأن "المرض المُتجدد" لا يتطور بعد مرور أربعين يوما من حدوثه وأن أنجع السبل لمُحاربته هي "الحجر". وقد تم اعتماد هذا الأسلوب الوقائي في معظم دول أوروبا حتى القرن التاسع عشر قبل أن تطالب فرنسا عام 1834 بتوحيد معايير تطبيقه. وفيما بعد، أصبح الحجر الصحي مُنظما بمجموعة من القوانين ابتداءً من سنة 1851 مع أول مؤتمر طبي عالمي بباريس. وفي المغرب يستند تطبيق الحجر الصحي إلى المرسوم الملكي رقم 554.65، والذي هو بمثابة قانون صدر سنة 1967 في الجريدة الرسمية، عدد 2853 من نفس السنة.

وختاما يمكن القول إن حاجة المجتمعات الراهنة إلى المؤرخ تبقى ضرورية، إلى جانب الطبيب ورجل الأمن وباقي الفاعلين في المجتمع، لأنه يقدم مادة أساسية تعتمد على تجارب البشرية مع ما حصل في الماضي من أوبئة وأمراض فتاكة. من هذه الزاوية، يلعب دور المُطمئِن للحد من الهلع، والمُنذر من آفة انتشار الفوضى والفتنة. كما يقدم مادة من شأنها أن تفيدَ علماء البيولوجيا والأطباء، الذين يشتغلون على توفير اللقاحات والمُضادات الحيوية، ويعالجون المرضى، وتوفِّر للقيِّمين على الأمن تجاربَ قد تُسعفهم في اتخاذِ الإجراءات الوقائية وفرضِ طرق الاحتراز في سبيل تحقيق "الانضباط" الذي هو مفتاح السلامة من كل الجوائحِ الفتاكة.

البيبليوغرافيا

البزاز محمد الأمين ، (1992)، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و 19، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

البياض عبد الهادي، (2008)، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (12 – 14م)، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت.

جسوس عز الدين، (2002)، الكوارث الطبيعية والأوبئة ومدى تأثيرها على العلاقة بين الرعية والسلطة السياسية خلال حكم المرابطين 53 - 73 ضمن أعمال ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب.

حبيدة محمد، (2020)، من وباء "الكوليرا" إلى جائحة "الكورونا" ... الموت يرسم معالم الغد، جريدة هسبريس، الأحد 29 مارس 2020

روزنبرجي برنار والتريكي حميد، (2010)، المجاعات والاوبئة في مغرب القرنين 16 و 17م، الرباط، دار الامان.

رويان بوجمعة، (2013)، الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945، الرباط.

عمالك أحمد، الأزمة وتوطيد الحكم المركزي مجاعة عام 1071 – 1072 نموذجاً، ص. 271 – 288.، ضمن أعمال ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب.

الفرقان حسن، (2014)، أدبيات الاوبئة في مغرب القرن 19، نموذج أقوال المطاعين في الطعن والطواعين للعربي المشرفي، تحقيق ودراسة، منشورات التوحيدي، طنجة.

المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب (2002)، منشورات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، جامعة شعيب الدكالي بتنسيق مع الجمعية المغربية للبحث التاريخي، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 4.

المكاوي أحمد، (2002)، إشكالية العدوى والاحتراز من الأوبئة في مغرب القرن 19، ص. 405 – 425 ضمن أعمال ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب.

Sebti Abdelahad, (2010), «Epidémies et culture des calamités à propos de la longue expérience marocaine», *Actes de la session plénière solennelle, de l'Académie Hassan II des Sciences et Techniques, 2010.* p. 127 -132

Rossignol Benoît, (2002), La peste antonine (166 ap. J.-C.), in *Hypothèses,* 1.3, pp. 31-37.

Coppin Brigitte et Welpy Michaël, (2006), *La peste: Histoire d'une épidémie,* Gallimard-Jeunesse, 2006.

L'Académie Hassan II des Sciences et Techniques, (2010), Actes de la session plénière solennelle, 17 – 19 Février, 270 p.

Benkimoun Paul, *(2008), Christophe Colomb a bien importé la syphilis d'Amérique,* Le Monde*, le 15 janvier*

Thucydide, *(1990), Histoire de la guerre du Péloponnèse (description de la peste d'Athènes dans le livre II), Bouquins, Robert Laffont.*



الحياة......

في زمن الفيروس التاجي "كوفيد-19"؟

مؤلف جماعي تحت إشراف:

جمال الكركوري أحمد الفرحان

يونيو 2020

الكتاب: الحياة... في زمن الفيروس التاجي"كوفيد- 19"

إشراف: جمال الكركوري وأحمد الفرحان

رقم الإيداع القانوني: 2020MO2036

ردمك: 978-9920-9476-0-2

الطبعة الأولى2020

